الغنوصيّة
وأسطورة الحكمة "Sophia"

د. نقولا أبو مراد
جامعة البلمند

مقدّمة

سنة ١٩٤٥، وعلى مقربة من ضفاف نهر النيل، اكتشفت جرّة تحوي على بعضٍ من أغنى المخطوطات في التاريخ الحديث، مخطوطات نجع حمادي. تضمّ هذه المخطوطات، على مثال مخطوطات البحر الميت التي تمّ العثور عليها بعد هذا بسنتين، نصوصًا تعود إلى بداية المسيحيّة، لم يعرفها العالم من قبل. تعود مخطوطات نجع حمادي إلى حركة دينيّة فلسفيّة عُرفت بالغنوصيّة. ومنذ اكتشافها عمل العلماء على دراسة مضمونها محاولين سبر أغوار علاقتها بالمسيحيّة الأولى.

في الوقت الذي نشطت فيه الغنوصيّة، كان لها أثر كبير على محيطها، ولعلّها ساهمت في جذب عدد كبير من الناس باتجاه معرفة المسيحيّة، ولو في شكلها الغنوصيّ، تلك الديانة الجديدة التي مؤسّسها "النبيّ يسوع المسيح". علّم الغنوصيّون، على ما وصل منهم إلينا، أنّ السبيل إلى الحرّيّة هو في بلوغ المعرفة (Gnosis)، معرفة الحقائق المقدّسة للعالم الروحيّ. وقالوا إنّ كلّ كائن بشريّ إنّما هو وريث شرارة إلهيّة، قبسٍ من نار تعطيها يد الله. وعندهم أنّ الناس لا يدركون، بغالبيتهم، تلك النار التي في داخلهم، ويعيشون في جهل لطبيعتها الحقيقيّة. غير أنّ حياة يسوع كانت رسالتها تذكير الناس بطبيعتهم الحقّة. وقد بيّن يسوع، في حياته وموته، السبيل المؤدّي إلى الحرّيّة، وعلّم أسرار الارتقاء.

في مقاربتنا للنصوص الغنوصيّة يلفتنا عدد من المفاهيم المتجذّرة في نظرتهم الخاصّة إلى العالم. ويمكننا أن نميّز في كتاباتهم ثلاثة أنواع تبعًا لمضمونها ومرتكزاتها؛ فهناك الأعمال التي تتحدّث على العالم ونشوئه، ثمّ الأناجيل التي تحوي حوارات بين يسوع وأتباعه، وثمّة أيضًا كتب أخلاقيّة تضمّ أقوالاً أو تعاليم محضة. في بعض كتاباتهم مزج بين اثنين أو أكثر من هذه التوجّهات.

في هذه المقالة سوف نعرض، من بين المفاهيم المتعدّدة التي حاول الغنوصيّون أن يطوّروها في كتاباتهم، أسطورة الحكمة، ومكانتها في هذه الكتابات.

أسطورة الحكمة

في الفكر اليونانيّ القديم تعمل التراتبيّة الروحيّة التي توجّه أمور الناس الأرضيّة جنبًا إلى جنب مع البشر، معلّمة إيّاهم في الفنون المقدّسة. في ما بعد، ومع سقوط بعض عناصر هذا الفكر، انتقلت التراتبيّة من العالم الخارجيّ إلى ما هو داخل الإنسان، أي إلى اللامكشوف، إذا صحّ التعبير. ومنذ ذلك الوقت صارت الحقائق القديمة تنتقل إلى عامّة الناس بشكل الرمز، أو الألّيغوريّة (Allegoria). أسطورة الحكمة واحدة من هذه الاستعارات أو الرموز، وهي الصورة الأبرز في الكتابات الغنوصيّة، وبخاصّة الأناجيل. وكان الغنوصيّون يكرمون الحكمة لأنّهم اعتبروها شكلاً آخر من أشكال المعرفة (Gnosis). في ما غلب من نصوصهم التي تتحدّث على العالم وتكوينه، أشكال متعدّدة لهذه الأسطورة. سوف نعرض الأسطورة، بشكل مختصر، ثمّ نحاول تبيان معانيها.

الحكمة والدميورغوس

"ولمّا رأت نتائج رغبتها، تحولت إلى شكلٍ أفعى بوجه أسد، وصارت عيناها كنار مشتعلة تلمع لمعانًا، وانبثقت

منها نار رمتها بعيدًا عنها، إلى خارج المكان الذي كانت فيه، لكي لا يراها أحد من الخالدين، لأنّها خلقتها في الجهل، في اللامعرفة، وأحاطتها بغمامة منيرة، وجعلت في وسط الغمام عرشًا لكي لا يراه أحد إلاّ الروح القدس الذي هو أمّ الأحياء، ودعت اسمه "يلتاباؤوت".

هذا هو الأركون الأوّل الذي أخذ من أمّه قدرة عظيمة... وهو كافر في جهله الذي فيه. لأنّه قال: "أنا الله، ولا إله إلاّي"، لأنّه يجهل قوّته، ولا يعرف من أين أتى" (إنجيل يوحنّا المنحول ٤، ١ ١٠: ٧–٢٠).

صوفيا – أخاموت روح سامٍ جدًّا، وهي انبثاق (مع المسيح، مسارّها) عن أمّها، الحكمة الأكبر، وكلّهم يعيشون في أرض روحيّة فوق أرض الناس اسمها "الملء" (Pleroma). نظرت الحكمة الأصغر إلى العالم، عالم المادّة، فرأت فيه انعكاسًا لنور متسامٍ، فدفعتها الرغبة إلى امتلاك هذا النور وتكثير صوره، إلى أن تترك مسارها السماويّ، المسيح، وتنزل إلى عالم المادّة. هناك حاولت، متسرّعة، أن تبعث الحياة في العناصر الجامدة، لكنّها فشلت وغرقت في الوحل، وعجزت عن أن تحرّر ذاتها. وعند اتصالها بالمادة أنتجت كائنًا له وجه أسد ودعته "إيلداباؤوت" (أي الطفل الفوضى). وحين أبصرت ما أنتجته من عدم كمال، أدركت أنّها تصرّفت بجهل كبير. عند ذلك، فرّت من المدى الأدنى وبنت حاجزًا، أو حجابًا، بين عالم الروح وعالم المادّة. وصار إيلداباؤوت "ابن الظلمة"، الذي لا يعرف أنّ ثمّة أشياء فوقه.

غير أنّه، رغم ما ينقصه من كمال، استحوذ على شيء من هذا القبس من النور، من أمّه صوفيا – أخاموت. وخلق، في عالمه، سبعة أبناء، وأعلن نفسه إلهًا أسمى، وأمرهم بأن يذعنوا لأوامره، ورفع ذاته فوقهم جميعًا.

ثمّ خلق إيلداباؤوت الإنسان على صورة رآها منعكسة على مياه المدى. واستعمل كلّ ما له من قوّة للخلق، ومع ذلك ظلّت خليقته فاشلة، لا عون لها، غارقة في الجهل، وتنحف على الأرض كدودة، الأمر الذي اضطره إلى طلب العون من أمّه، وهذه أرسلت قبسًا من النور الإلهيّ، حرّك الإنسان وبعثه إلى الحياة.

وعندما رأى إيلداباؤوت الإنسان يسمو أكثر فأكثر بفعل النور الذي فيه، استشاط غيظًا واشتعلت الغيرة في قلبه. وتحوّلت صورته في المادّة إلى شيطان بشكل أفعى، تجسّد الحسد والمكر. وقيّد إيلداباؤوت آدم وحواء، خليقته في الوحل، لكي لا يفرّا من الأرض. وبنى للإنسان الممثّل بهما، جنّة عدن، وأعطاه كلّ ما فيها. ولكي لا يذوق الموت، منعه من أن يأكل ثمر شجرة معرفة الخير والشرّ.

أمّا صوفيا – أخاموت فكانت ساهرة على خليقتها، تعتني بها، وتحميها. فأرسلت حيّة من لدنها اسمها أغاثوديمون (agathodaemon)، أي الشيطان الصالح أو المعلّم الصالح، وهذه دفعت آدم وحواء إلى أكل ثمر الشجرة. فأُخرجا من الجنّة، إلاّ أنّهما، رغم الشقاء والظروف الصعبة التي استجدّت عليهما، بقيت الحكمة الإلهيّة فيها ومعهما في محن الحياة.

في النهاية، وبعد أن عاش الإنسان دهورًا من الألم، طلبت صوفيا – أخاموت من أمّها الحكمة الأكبر أن ترسل المسيح ليساعد الناس في عذابهم اللامتناهيّ. هذا، في صلبه وقيامته، أخضع مملكة المادّة، وجعل حدًّا لحكم إيلداباؤوت الأعمى. وظلّ المسيح يحكم من على عرشه في السماوات، جاذبًا إليه كلّ الأنفس التي انتصرت معه.

خلق البشر

يبدو أنّ أسطورة الحكمة، إعادة سرد لقصص الخلق، لا سيّما ما فيها من أحداث ترتبط بخلق مملكة الإنسان على الأرض. الحكمة الأكبر هي القوّة الخلاّقة، العاملة بالمحبّة والحكمة. ووظيفة هذه القوّة أن تخلق، إزاء الجسد، العقل الذي يقود الإنسان من الحياة الجسديّة المحض إلى التعبير الروحانيّ الأعظم. إنّ خلق الإنسان عنصر أساسيّ في هذه الخطوة التقدّميّة العميقة، ففي مملكة الإنسان سوف يتطوّر مفهوم العقل، أو عنصر العقل، الذي سيكوّن جسرًا يربط عالم المادة بعالم الروح.

في أسطور الحكمة أكثر من خالق. الحكمة الأصغر تعمل بأمر من الحكمة الأكبر، والمسيح بينهما. غير أنّ كلاً منهما يحاول بطريقته الخاصّة أن يساعد النور الذي يحاول أن يولد. عند الغنوصيّين إيلداباؤوت هو الديميورغوس،

أو يهوه، إله العهد القديم. وهو، مع أبنائه السبعة، يمثّلون نظام الخالقين الماديّين الأدنى. وكما أن المادة عمياء، هكذا إيلداباؤوت أيضًا، وذلك لأنّ الحكمة الأصغر، حين رأت ما في خليتها من عيوب، جعلت حجابًا بينه وبين النور الأسمى.

ما نراه في هذه الاستعارة، هو تلك القوّة الخارقة التي يظنّ إيلداباؤوت أنّه يمتلكها. لكونه لا يرى العوالم الأعلى، يظنّ أنّه الإله الوحيد، فيعلن بكبرياء: "أنا الإله ولا إله غيري". وهو يمثّل، بمعنى شخصيّ، ضيق أفق الناس، أو انعدام قدرتهم على أن يروا العوالم الأسمى. وهو يمثّل أيضًا، عند الغنوصيّين، مقاومة الناس لأن ينموا إلى النظام الأسمى.

هذا الصراع الأبديّ البادي في هذه الاستعارة، أو ما أسميناه أسطورة الحكمة، والمتمثّل في إيلداباؤوت والحكمة الأصغر، إنّما هو صراع رمزيّ؛ فالصراع جزء لا يتجزّأ من منظومة الكون. في النهاية، تقول الكتب الغنوصيّة، إنّ الإله المجهول، أي الحكمة الأعلى، سوف يفرض مروعه، وسيعمّ التناغم في العالم. ولكن إلى أن يحين هذا الوقت، على الإنسان أن يتعلّم أسرار الثنائيّة، ثنائيّة الخير والشرّ.

مثال تطبيقيّ على أسطورة الحكمة: يسوع في إنجيل توما الغنوصيّ

إنّ يسوع، كما يصوّره إنجيل توما الغنوصيّ، يصرّ على أنّ العالم ينبغي النظر إليه كما هي حاله في تك ١: ١-٢: ٤، أي أن يكون على الناس أن يعيدوا ذواتهم إلى حالة صورة الله. هكذا يحيون في العالم في الراحة والأبديّة الخاصّتين باليوم السابع. من يبحث عن المسيح يجده عندما يتمّ العثور على الحالة الأولى للعالم. غير أنّ المسيح ليس هو، في ذاته، العنصر الأساسيّ في الخلاص.

في القول ٧٧ من إنجيل توما، يعلن يسوع أنّه النور الذي يعلو كلّ الأشياء، وعليه فإنّه كلّ شيء: "قال يسوع، أنا النور الذي فوق الجميع، وأنا كلّ شيء. منّي صدر كلّ شيء، وإليّ يأتي الكلّ".

إنّ قبس النور الذي بثّته الحكمة الأصغر في الناس لإنقاذهم من المادّة المحض نجدها في قول يسوع الآتي في إنجيل توما (٥٠): "قال يسوع، إذا سألكم الناس من أين أتيتم؟ قولوا لهم، أتينا من النور، في المكان الذي حلّ فيه النور، وثبّت نفسه، وصار جليًّا في صورتهم". وبحسب إنجيل توما ٢٤، على الذين يبحثون عن المسيح ألاّ يبحثوا عنه هو، لأنّهم سيجدون ضالّتهم في ذواتهم، أي النور الأوّل، الذي إذا صار فاعلاً، أنار العالم بأسره: "قال تلاميذه: أرنا المكان الذي أنت فيه، لأنّه ضروريّ لنا أن نبحث عنه. قال لهم، من له أذنان فليسمع، ثمّة نور في رجل النور، وهو ينير العالم. وإذا لم يستنر فهو ظلمة".

وكما جاء الذكر في عرض أسطورة الحكمة نجد عند توما، أنّ ملكوت الله هو سكنى النور في كلّ الأشياء في الناس (إنجيل توما ٣ و٢٤) وخارجهم (إنجيل توما ١١٣ و٧٧). "قال يسوع، إذا دفعكم أناس إلى أن تقولوا، أنظروا إنّ ملكوت الله في السماء، فإنّ عصافير السماء ستسبقكم إليه. وإذا قالوا لكم إنّه في البحار فسمك البحر أقرب إليه منكم. إنّ ملكوت الله في داخلكم وخارجكم. عندما تعرفون ذواتكم، ستُعرفون أيضًا، وتدركون أنّكم أنتم أبناء الآب الحيّ. وإذا لم تعرفوا ذواتكم، فستقبعون في الفقر، وأنتم ستكونون هذا الفقر" (إنجيل توما ١١٣).

وفق إنجيل توما، يستطيع الناس أن يفعّلوا النور الذي فيهم وهكذا يرون العالم وذواتهم بمقتضى نور الخليقة. يرون العالم كما كان في البدء، ويقفون أمام البدء (القول ١٨)، ولن تكون لهم حاجة إلى الفداء. سيعرفون أنّهم أبناء الآب الحيّ (القول ٣)، أي صورة الله، فيدخلون ملكوت السماوات (القول ٢٢). لن يدركوا ذواتهم غرباء عن هذا العالم، أو أجزاء من عالم آخر، بل سيعرفون أنّهم منذ البدء كمال الخليقة الأولى. وسيرون انتشار ملكوت الله في العالم. وسيصيرون في حالة صورة الآب الإلهيّ. وهكذا يصير الذين يدركون النور الذي فيهم مملوئين، أمّا الذين لا يدركون فهم فارغون (القول ٢٨). الذين يرون النور متّحدون، ومملوؤون بالنور، أمّا الذين لا يرونه فمنقسمون، مشتّتون، مملوؤون ظلمة (القول ٦١).

ما هو دور يسوع إذًا؟ الواضح أنّ دوره هو أن يقود الناس

إلى المعرفة الحقّة، أو معرفة الحقّ؛ فكما أرادت الحكمة الأصغر أن تعرف الحقّ وفشلت، وغرقت في أوحال المادّة، هكذا فإنّ طلب الآب قد يفشل ويسقط الإنسان في الغلط. والخطأ يقود إلى خلق عالم من النسيان. هكذا فإنّ محاولة معرفة الحقّ الذي في الإنسان ينبغي أن يوجهها من كان حاملاً للحقّ، وهذا دور المسيح. المسيح هو المعلن، فكما أنّ الوصول إلى الحقّ من تلقاء الذات يؤدّي إلى الخطأ، هكذا إعلان المسيح يقود إلى الحقيقة.

خاتمة

حاولنا في هذا العرض المختصر أن نلقي الضوء على الفكرة الأساسيّة عند الغنوصيّين والتي حاولوا التعبير عنها في مختلف كتاباتهم، وخصوصًا في الأناجيل الخاصّة بهم، ولو اختلفت طرق أو درجات استعمالها. وتمثّل هذه الأسطورة خلفيّة فكرهم الذي يعتبر أنّ الحكمة الأعلى هي مبتغى الناس وأنّها فيهم، وما عليهم إلاّ التفتيش عنها، يساعدهم في هذا يسوع المسيح بتعليمه وحثّه. فإذا تبعوه كانوا من المنتصرين.

المراجع

CAMERON Ron, ed., *The Other Gospels: Non-Canonical Gospel Texts* (Philadelphia, PA: The Westminster Press 1982), p. 55-64.

KOESTER Helmut, *Ancient Christian Gospels* (Harrisburg, PA: Trinity Press 1990), p. 187-200.

MILLER Robert J., ed., *The Complete Gospels: Annotated Scholars Version* (Sonoma, CA: Polebridge Press 1992), p. 351-360.

ROBINSON James M., ed., *The Nag Hammadi Library in English* (San Francisco, CA: Harper Collins 1990), p. 523-527.

SCHEEMELCHER Wilhelm, ed., translation by R. McL. Wilson, *New Testament Apocrypha: Gospels and Related Writings* (Louisville: John Knox Press, 1992), p. 391-395.